مدخل إلى الفنون النثرية

تمهيد

عرف العرب فنون النثر الأساسية، وفيها المثل والحكمة والقصة والخطابة والرسالة منذ العصر الجاهلي وتطورت حتى شملت، الكتابة التاريخية المنمّقة وظل هذا الفن يأخذ منحى معينا عبر العصور الأدبية المختلفة. وفي النصف الأول من القرن التاسع عشر، كان النثر ركيك الأسلوب يعتمد على المحسنات البديعية، مسيطرا عليه طريقة القاضي الفاضل على أساليب كتاب عصره ، فبدت على أساليب هؤلاء مظاهر التكلف فأسرفوا في المحاكاة وأوغلوا في الصنعة، وتعمد تصيد الألفاظ والأساليب ذات البريق واللمعان..

ماهية النثر:

النثر نثرك الشيء بيدك ترمي به متفرقا مثل نثر الجوز واللوز والسّكّر، وكذلك نثر الحَبِّ إذا بُذرَ ... ورجلٌ نَثِرٌ بين النثر ومِنْثرٌ، كلاهما :كثير الكلام، والأنثى نَثِرَةٌ فقط"
مأخوذ من المادة اللغوية نَثَر، أي رمى الشيء وألقاه على نحو مُتفرّق ومبعثَر، ونَثَر الكلام: أي أرسله بلا قافية أو وزن.

النثرفي الاصطلاح هو شكل من أشكال الكتابة الأدبية يخالف الشعر في كونه غير موزون أو مقفى، يكثر فيه استخدام المحسنات البديعية، وله العديد من الخصائص الجمالية، ويكثر في معظم الأعمال الأدبية النثرية ،فيه سلاسة وطلاقة خلافا للنظم الذي يحتاج إلى إعمال فكر وتمعن ومراعاة القوافي والعروض..عرفه الكاتب حنا الفاخوري في كتابه "الجامع في تاريخ الأدب العربيّ" هو الكلام المرسل على نحو تلقائي وعفوي دون تقيّده بوزن".

ولشرف النثر، قال الله تعالى في محكم التنزيل: ﴿ **وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا**﴾ ولم يقل لؤلؤا منظوما، ونجوم السماء منتثرة وإن كان انتثارها على نظام، إلا أن نظامها في حد العقل، وانتثارها في حدِّ الحدس" وقوله في حد العقل، أي أن العاقل يوقن بعقله أنّ الله نظم النجوم في نظام ما، إلا أن الحدس يراها منثورة في غير نظام.

قسم ابن خلدون الكلام إلى فني النثر والشعر في قوله:

"اعلم أن لسان العرب وكلامهم على فنين في الشعر المنظوم، وهو الكلام الموزون المقفى، ومعناه الذي تكون أوزانه كلّها على روي واحد وهو القافية، وفي النّثر وهو الكلام غير الموزون، وكلّ واحد من الفنّيْن يشتمل على فنون ومذاهب في الكلام" إلا أن ابن خلدون هنا يستفيض في الشعر وكأن النثر عنده أقل قيمة من الشعر.

عرفه شوقي النثر بقوله: النثر هو الكلام الذي لم ينظم في أوزان وقوافي، وهو على ضربين :أما الضرب الأول فهو النثر العادي الذي يقال في لغة التخاطب، وليست لهذا الضرب قيمة أدبية إلا ما يجري فيه أحيانا من أمثال وحكم، وأما الضرب الثاني فهو النثر الذي يرتفع فيه أصحابه إلى لغة فيها فن ومهارة وبلاغة ...وهو يتفرع إلى جدولين كبيرين، هما الخطابة والكتابة الفنية ويسميها بعض الباحثين باسم النثر الفني"

لا حظ البعض في تعريف شوقي ضيف على الكلام الذي يقال في لغة التخاطب، فهو ليس نثرا عاديا في كل الحالات، إنما قد يكون فيه من البديع والبيان أحيانا، ما يرفعه إلى درجة النثر الفني، أما اللغة التي لا ترتقي للفنية هي اللغة العلمية إذ من الواجب أن تكون عارية من المجاز، تقدم المعلومة من أوضح الطرق وأيسرها، وقد أحسن شوقي ضيف إذ أخرج الخطابة من الكتابة الفنية، لأن الخطابة في أصلها حجاجية إقناعية خلاف القصة والمسرحية وغيرهما، وهي إلى جانب ذلك شفوية، إلا إذا قيدت في قراطيس ونشرت، فالأصل فيها الشفوية والمنبرية، أما المقال فقد يكون حجاجيا أيضا ولكنه في أصله معد للنشر.

مراحل تطور النثر العربي:

1 ـ مرحلة البدايات:

أرسلت طائفة من الشباب المصري إلى أوربا وعلى رأسها رفاعة الطهطاوي " الذي تعلم في الأزهر وتخرج فيه، ورافق البعثة الكبرى الأولى لمحمد علي إماما لها. ولم يكتف بعمله، بل أقبل على تعلم اللغة الفرنسية، حتى أتقنها. وفي أثناء إقامته بباريس أخذ يصف الحياة الفرنسية من جميع نواحيها المادية والاجتماعية والسياسية في كتابه " تخليص الإبريز في تلخيص باريز". وعاد إلى مصر فاشتغل بالترجمة وعين مديرا لمدرسة الألسن، وأخذ يترجم مع تلاميذه آثارا مختلفة من اللغة الفرنسية. وكان ذلك بدء النهضة الأدبية المصرية، ولكنه كان بدءا مضطربا، فإن رفاعة وتلاميذه لم يتحرروا من السجع والبديع، بل ظلوا يكتبون بهما المعاني الأدبية الأوربية. ومن الغريب أنهم كانوا يقرءونها في لغة سهلة

يسيرة، ثم ينقلونها إلى هذه اللغة الصعبة العسيرة المملوءة بضروب التكلف الشديد، فتصبح شيئا مبهما لا يكاد يفهم إلا بمشقة"

2 ـ مرحلة الانتقال:

إنشاء منشآت الصحافة والطباعة والترجمة وتأسيس المدارس والجامعات والمجامع والبرامج وإحياء التراث العربي القديم كلها عوامل أدت إلى تطور النثر وظهور بعض الأجناس الأدبية، ومن أعلامها عبد الرحمان الكواكبي ومحمد عبده.

ـ محمد عبده هو تلميذ حمال الدين الأفغاني، له عدة مقالات في إصلاح التربية والتعليم وهو الذي أخرج الكتابة الصحفية من دائرة السجع والبديع إلى دائرة الأسلوب الحر السليم. وكون لنفسه أسلوبا قويا جزلا، ومرنه على تحمل المعاني السياسية والاجتماعية الجديدة والأفكار العالية، ومعنى ذلك أنه طور النثر العربي من حيث الشكل والموضوع.

ـ لطفي المنفلوطي أحد تلاميذ الشيخ محمد عبده، قطع بالنثر شوطا كبيرا بكتبه ومقالاته، فأنشأ أسلوبا نقيا خالصا ليس فيه شيء من العامية ولا من أساليب السجع الملتوية إلا ما يأتي عفوا، ولم يقلد في ذلك كاتبا قديما مثل ابن المقفع والجاحظ بل حاول أن يكون له أسلوبه الخاص، فأصبح النثر متحررا من كل أشكال الصنعة اللفظية.

كانت الشهرة التي حظي بها المنفلوطي، تعزى إلى أسلوبه أكثر مما تعزى إلى مضمون مقالاته. وهو الذي أدرك الحاجة إلى تغيير أساليب اللغة العربية، وكثيرا ما عبر عن اعتقاده بأن سر الأسلوب كامن في تصوير الكاتب تصويرا صادقا لما يدور في عقله من أفكار.

ـ عبد الرحمان الكواكبي: نهج في دعوته منهج العلم التجريبي وانفتح على روح الأمة الإسلامية المتخبطة في الجهل والتخلف، فوضع لنفسه منهجا في الكتابة ويظهر ذلك في مؤلفاته، من خلال تحليله الأمراض الاجتماعية والسياسية تحليلا دقيقا منتقدا أساليب الظلم التي يستخدمها الحكام، فكان يخاطب العقول قبل العواطف مستفيدا من دراساته العلمية في الرياضيات والعلوم الطبيعية، خاصة وان المرحلة التي تعيشها أمته جد حرجة.

3 ـ مرحلة الازدهار:

تعد هذه المرحلة تتويجا لما سبق من المراحل، حيث تنوعت فنون النثر وانفتحت على كل الأجناس النثرية، وأدلت فيها بدلوها، فجاء الإنتاج مفيدا مثقلا بروح العصر وقضاياه. طور النثر بعد الحرب

العالمية الأولى، وظهر الاتجاه الأدبي الذي يدعو أصحابه إلى الأسلوب الفصيح الرصين الجزل، حتى يكون لأدبهم موقع حسن في الأسماع والقلوب، فهم يحرصون على الإعراب وعلى الألفاظ الصحيحة. وكانوا في إطار تجديد، لا يخرجون عن أصول العربية، ويقوم هذا الاتجاه على التحول والتطور في اللغة العربية على نحو ما تحولت وتطورت الآداب الأوربية، دون قطع صلتها بالقديم، وهذه النزعة المجددة كانت إحياء للقديم وبعثا وتنمية في صور جديدة، ويعتمد على عنصرين متكافئين وهما المحافظة على إحياء القديم والإفادة من الآداب الغربية وفي هذه المرحلة ظهرت مدرستان متميزتان في الكتابة هما:

أ ـ مدرسة المحافظين: ضمت هذه المدرسة كتابا وأعلاما تشبعوا بالثقافة العربية لا غير، ولم يكن لديهم اتصال بالثقافات الخارجية، فجاءت لغتهم سليمة راقية، متسمة بجودة الصياغة، ومن روادها الرافعي، وحسن زيات، والمنفلوطي.

ب ـ مدرسة المجددين: أبرز أعضائها ممن تشيعوا بالثقافة الأجنبية وتراثها وانعكست على كتاباتهم التي تميزت بعمق الفكرة ودقتها وتحليلها واستقصائها، وعالجوا قضايا النقد الأدبي والتحليل النفسي والاجتماعي ومن أعلامها العقاد والمازني وجبران خليل جبران وطه حسين وميخائيل نعيمة وتوفيق الحكيم وغيرهم.

أغراض النثر في عصر النهضة:

1- النثر الاجتماعي الذي يتطلب صحة العبارة، والبعد عن الزخرف والزينة، ووضوح الجمل، وترك المبالغات، وسلامة الحجج وإجراءها على حكم المنطق الصحيح، لأن الغرض منه معالجة الأمر الواقع، فلا ينبغي استعمال الأقيسة الشعرية، ولا الخيال المجنح.

2- النثر السياسي أو الصحفي، ويمتاز بالسهولة والوضوح بحيث يكون معناه في ظاهر لفظه؛ لأن الصحف تخاطب الجماهير، ويقرؤها الخاصة والعامة.

3- النثر الأدبي، وهو أشد أنواع النثر حاجة إلى تخير اللفظ، والتأنق في النظم، حتى يخرج الكلام مشرقا منيرا، لطيف الموقع في النفوس، حلو النبرة في الآذان، لأن للموسيقى اللفظية أثر كبير في الأذهان. وهو أدنى أنواع النثر إلى الشعر.